مجلة دجلة • المجلد ١ ،العدد ٣ (٢٠١٨)، ص: ٢٧ – ٣٩

ISSN: 2222-6583

العلاقات العربية الفارسية قبل الإسلام

the Arabic-Persian relation at the pre- Islamic period

د. محمد علي دقة

أستاذ الأدب القديم المساعد

جامعة نزوى – سلطنة عمان

البريد الألكتروني dr.mdaqa@gmail.com

الهاتف الجوال 0096892493510

Abstract

This paper studies the Arabic-Persian relation at the pre- Islamic period. The main element is to study the nature of the relationship between AL-Manatheras and Persians, since the Persian support for establishing and resistance of this Emirate to control the otherTribes. On the other hand, this study treats the BedouinPersianrelationship, and how the ancient Yemen leaders called Persians for the expulsionof Habashis.Quraish was a neutral tribe; they were taking into account there Business interests.

تناول هذا البحث العلاقات العربية الفارسية قبل الإسلام ، فعرض لطبيعة العلاقة بين المناذرة والفرس ، إذ نشأت هذه الإمارة بدعم وتأييد من الفرس ، لتقوم بمهمة ضبط القبائل العربية . كما تحدث عن العلاقات بينالفرس و القبائل البدوية . أما زعماء اليمن فقد استنجدوا بالفرس للتخلص من الاحتلال الحبشي. وانطلقت قريش من مصالحها التجارية في علاقاتهاالدولية ، فاتخذت سياسة الحياد في الصراع بين الفرس والروم

تراث الأمم لا ينقطع ولا يموت ، وإنما يظل التواصل قائما بين الماضي والحاضر، بين السلف والخلف يسهم في تشكيل فكرهم وتكوين رؤاهم وصنع مستقبلهم . ولا يعني ذلك أن ما كان بالأمس ينطبق على ما يجري اليوم ، فالتاريخ لا يعيد نفسه ،وإنما يسير في حركة لولبية تتشابه فيها بعض محطات التاريخ وأحداثه وتختلف في آن ،وإن حاول بعض الكتاب و المبدعين توظيف الماضي وفق رؤاهم المعاصرة.

ولعل هذا التنويه لا بد منه للولوج إلى البحث في العلاقات العربية الفارسية قبل الإسلام ، كي لا يظن ظانّ أننا نريد أن نوظف الماضي لغايات في الحاضر ، أو ننبش في الماضي بأفكار مسبقة من وحي اليوم .

مجلة دجلة • المجلد ١ ،العدد ٣ (٢٠١٨)، ص: ٢٧ – ٣٩

ISSN: 2222-6583

ولعل الناظر في أحوال العرب قبل الإسلام يرى أن عرب الشمال قبائل متفرقة الأهواء ، تشكل كل قبيلة وحدة سياسية واقتصادية تتنافس مع غيرها من القبائل على السيادة ومرابع الخصب ، في حين عاشت اليمن استقراراً وازدهارا حضاريا ، فعرفت الزارعة والتجارة والصناعةالراقية في ظل دولها وأقيالها ، غير أن انهيار سد مأرب دفع القبائل اليمانية إلى الانسياح في أرجاء الجزيرة، فحط الأزد رحالهم بعمان ، ونازع الأوس والخزرج اليهود على يثرب ، وأقام المناذرة مملكتهم في الحيرة ، والغساسنة في الشام .(١)

وكان أمراء الحيرة صنائع الفرس ، وأمراء الشام صنائع الروم ، ولم تقتصر علاقات الإمبراطوريتين العظيمتين على المناذرة و الغساسنة من العرب ، فقد استفادتا من المنافسة بين شيوخ القبائل ، لضبط هذه القبائل ،والسيطرة عليها ، وحماية مسالك التجارة مقابل أعطيات سنوية.

ولا يخفى أن جزيرة العرب كانت طريقاً تجارياً ، يصل أطراف العالم المعمور آنذاك ،وكان للمصالح التجارية أثر كبير في العلاقة السياسية القائمة بين الفرس والقبائل الواقعة على ممرات التجارة ، وكذلك بين الروم وتلك القبائل ، وبين اليمن وقبائل العرب الشمالية ،فقد كان لابد لليمن من نفوذ في الشمال ، يضمن لها سلامة قوافلها، وتسويق مصنوعاتها .

وقد تتعارض المصالح السياسية والتجارية العربية بسبب تعارض المصالح القبلية والأهواء والنزاعات الفردية لسادات القبائل ، لذلك بقيت تلك القبائل وحدات متجانسة في تركيبها الاجتماعي ،متنافرة في علاقاتها السياسية ،فكان من الهين عليهم أن يكونوا عوناً للأجنبي على أبناء جلدتهم ، إذا اقتضت مصالحهم السياسية أو التجارية ذلك .

المناذرة والفرس :

لم تكن مهمة حفظ حدود العراق سهلة على الفرس ،فقد وقف أعراب نجد والخليج وقفة تربص وتأهب. فإذا أصابوا منهم غرة أغاروا على سواد العراق ، فأعملوا فيه السلب والنهب ،وإذا كانت جيوش الفرس مشغولة بحرب الروم ، تطاولوا على السواد الشديد الخصوبة فتربعوا فيه. وقد علم الفرس أن قواتهم النظامية غير قادرة على ضبط الأعراب ، وكبح جماحهم ، لسرعة فرارهم إلى الصحراء وعجز الفرس عن تعقبهم ، ومطاردتهم في تلك المهالك والبوادي، من هنا نشأت مملكة المناذرة في كنف الإمبراطورية الساسانية ، وكان للفرس مصلحة في استقرار ملوك الحيرة ،وتوطد حكمهم على حدودها الغربية ، ليقوموا بدور الحراسة ، وضبط القبائل العربية ،وكبح جماحها عن التطاول على السواد ، ولتأمين سلامة القوافل التجارية الذاهبة من فارس إلى مكة واليمن وغيرها من أسواق العرب،والآيبة منها .وقد اتصفت الحيرة وما يليها من السواد بخصب الأرض، ووفرة المياه وطيب المناخ ، مما ساعد على استقرار حكم المناذرة وقوتهم . و عاش المناذرة حياة

حضرية مترفة، اصطبغت بالـــــــصبغة الفارسية .واعتمدوا الأساليب الفارسية في بناء الجيش والحروب. وعرف أهل الحيرة الكتابة فاستخدمهم الفرس في أمر الترجمة بينهم وبين العرب.

ولـــــــم يكن بسط السلطان على القبائل العربية، ودخولها في طاعة المناذرة، والتزامها عدم الإغارة على السواد هيناً ، فالقبائل إذا وجدت في نفسها اقتداراً وقوة، ووجدت في الملك ضعفاً ووهنا ،شقت عصا الطاعة ،وقامت بالغزو والإغارة والسلب والنهب ،فالخروج على دين الملوك طبع أصيل فيهم . لذلك وضع الفرس كتيبة من الجند تحت إمرة المناذرة ، وقاموا بتقديم المساعدات المالية والأعطيات الـــــــــسنوية لهم .

ولم تكن ثقة الفرس بالمناذرة شديدة ولا سيما في أواخر عهدهم ، فقد عجز ملوك الحيرة المتأخرون عن منع القبائل العربية من الإغارة على حدود الساسانيين ،وعن حماية قوافل التجارة الفارسية الذاهبة إلى اليمن ،وعن حماية لطائمهم الذاهبة إلى أسواق العرب ،فقد ذكر ابن حبيب أن قيس بن بلعاء الكناني ،اعترض لطائم النعمان مرتين ، وأن البراض الكناني قتل عروة الرحال ،وكان مجيراً للطيمة النعمان (٢) ولم يعد في قدرة ملوك الحيرة أن يختاروا وريثاً لملكهم ،واصبح هذا الأمر بيد كسرى ، فالمنذر بن المنذر لم يختر أياً من أولاده لملكه بعد موته. وأوكل كسرى بن هرمز حكم الحيرة إلى إياس بن قبيصة الطائي ، ريثما يرى رأيه في أولاد المنذر .ويبدو أن الشك بولائهم بلغ درجة عظيمة ، دفعت كسرى إلى التفكير باحتلال الحيرة، وإدارتها من قبل الفرس مباشرة، فقال : " لأبعثن إلى الحيرة اثني عشرألفاً من الأساورة، ولأملكن عليهم رجلاً من الفرس ،و لآمرنهم أن ينزلوا على العرب في دورهم ،ويملكوا أموالهم ونساءهم ".ولكن كسرى رأى مخاطر هذه السياسة ،فشاور عدي بن زيد في الأمر ، فاقترح عدي عليه أن يولي أحد أولاد المنذر وكان عدي كاتباً في ديوان كسرى وموضع ثقته ، وكان ميالاً إلى النعمان، فتلطف له عند كسرى ، فملكه ، وخلع عليه وألبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب (٣).

غير أن الأمر فسد بعد لأي بين عدي بن زيد والنعمان، فقد ضغن النعمان على عدي، وأودعه السجن ، فلما علم بذلك كسرى بعث رسولا للنعمان، وحمله كتاباً يأمره فيه بإرسال عدي إليه .فأقدم النعمان على قتل عدي، ورشا الرسول ، ليبلغ كسرى أن عدياً قد مات قبل وصوله الحيرة بأيام قليلة(٤).

ولمعرفة البواعث التي دفعت النعمان إلى الضغن على عدي بن زيد ،فحبسه، ثم قتله، لا بد من العودة إلى تاريخ أسرة عدي فهي أسرة آرامية رباها الفرس في بلاطهم ،وعرفت بإخلاصها وتفانيها في خدمتهم . فقد ولي أبوه زيد بعض أقسام البريد (نقل الأخبار)، وعمل عدي كاتباً في ديوان كسرى، وبعثه في سفارة إلى "طيباريوس الثاني" قيصر الروم، ثم جعلة كاتباً في بلاط الحيرة ، فكان عيناً

لكسرى على المناذرة، وقد ذهب عمر فروخ إلى أن الحكم الفعلي في الحيرة كان لعدي بن زيد لا للمناذرة ، وأن أعمال عدي هي في مصلحة الفرس أكثر مما هي في مصلحة المناذرة ، وأدرك ذلك النعمان ، فحبسه، ثم قتله(٥).

وبعد مقتل عدي تولى زيد بن عدي الشؤون العربية في ديوان كسرى، والمكاتبة إلى أمراء العرب وشيوخها ، ليكون عيناً للفرس على العرب والمناذرة خاصة، ويروي الإخباريون العرب أن زيداً تمكن من الإيقاع بالنعمان عند كسرى ،عندما أقنع كسرى أن يطلب نسوة من أهل بيت النعمان ،وكانت العرب تتكرم عن العجم ، فأبى النعمان . وسكت كسرى أشهراً على ذلك ، ثم استدعاه، فاستجار بسادات العرب ، ثم بدا له أن يقدم على كسرى فلما وصل المدائن أمر به كسرى ، فألقي في السجن بخانقين ، وبقي في السجن حتى مات بالطاعون (٦). وقيل ألقي تحت أرجل الفيلة(٧).

إن الإخباريين العرب كثيرا ما يفسرون الأحداث التاريخية بقصص وأخبار أدبية يغلب عليها طابع الطرافة والمتعة والتسلية غافلين عن الأسباب والبواعث الجدية التي أدت إلى مثل هذه الأحداث الخطيرة ،ولعل طلب كسرى نسوة من النعمان يدخل في هذا الباب من المتعة والطرافة، ولا سيما إذا عدنا إلى نص الرسالة التي تضمنت صفة النساء التي يرغب فيها كسرى ، وهي صفة تصور النموذج المثال للمرأة في خلقتها وخلقها عند العرب الجاهليين (٨).وبطبيعة الحال لا يمكن لمثل هذا الخبر أن يكون تفسيراً لحدث تاريخي هام ، ذي أبعاد خطيرة ، كان له أثر كبير في العلاقة بين العرب والفرس ،وكان من أولى نتائجه يوم ذي قار ، وإذا سلمنا جدلا بصحة طلب كسرى نسوة من النعمان ،فإنه لا يعدو أن يكون سببا مفتعلا للأحداث . فمن الواضح أن ولاء المناذرة للفرس لم يكن خالصاً. وأن مخاوف الفرس من النعمان قد بلغت درجة عظيمة، فقد بدأت نواة الشعور القومي بالتكوين ، في هذه المدة المتأخرة من تاريخ الجاهلية . وبدا ميل النعمان لقومه العرب واضحاً جلياً ، فلقد تميزت علاقته مع سادة العرب ووجوهها بالمودة والإكرام ، فكانت تجتمع إليه وفود العرب في كل عام ، تتفاخر بقبائلها و أنسابها ، ثم يخلع على أعزها قبيلاً حلة، ويمنحهم الهدايا والأعطيات (٩) . ويروى أن للنعمان وفادة على كسرى، تلقي بعض الضوء على شخصيته، وعلى طبيعة العلاقة بينه وبين الفرس ، فقد افتخر فيها بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ،في مجلس ضم وفود الروم ،والهند ،والصين ، فلقد تحدثت وفود الأمم وفخرت بملوكها وبلادها ، ففخر النعمان بقومه العرب ، وفضلهم على غيرهم ، ولم يستثن الفرس ،فغضب كسرى ، وأخذته العزة، فتنقص العرب ، وفضل عليهم جميع الأمم (١٠).

وإذا كانت هذه الوفادة من رواية ابن الكلبي ،وهو راوية متهم يقتضي الحذر ألا نثق بكل ما ورد فيها ، فهي على أية حال تدل على بداية تكون الشعور القومي العربي ، وعلى عصبية النعمان لقومه

مجلة دجلة • المجلد ١ ،العدد ٣ (٢٠١٨)، ص: ٢٧ – ٣٩

ISSN: 2222-6583

العرب ، وضعف ولائه للفرس . وهذا يكشف جانباً هاماً من مخاوف الفرس من النعمان ، ومن البواعث الحقيقية لقتله. وقد ظهرت هذه المخاوف جلية واضحة في مقالة زيد بن عدي لكسرى عندما قتل النعمان ، فقد ذكر البيهقي أن النعمان قدم المدائن ، ودخل على كسرى ودخل زيد بن عدي بعده ،فقال زيد لكسرى :أيها الملك ، إن هذا العبد إذا جلس على سريره ، ووضع التاج على رأسه ، ودعا بشرابه، لم يظن أن لك عليه سلطاناً! فأمر كسرى بالنعمان أن يلقى بين أرجل الفيلة (١١) .

لقد خشي الفرس أن يتقلص نفوذهم عن الحيرة ، فافتعلوا طلب المصاهرة – إذا صح الخبر – ، ثم بادروا إلى استدعاء النعمان إلى المدائن ، وتخلصوا منه.

الفرس وقبائل العرب :

على الرغم من أن الفرس أوكلوا أمر القبائل البدوية إلى المناذرة إلا أنهم كانوا يستميلون سادة القبائل ويجعلون لهم جعالات كي يأمنوا على تجارتهم في بلاد العرب . و على قوافلهم الذاهبة إلى اليمن وكان لزاما أن يخفر هذه القوافل خفراء من القبائل التي تمر في أراضيهم ، وأي خروج على هذه القاعدة يعرض القافلة للنهب والسلب ، وهذا ما وقع لقافلة فارسية بعث بها كسرى إلى عامله على اليمن ،إذ أغار عليها بنو سعد ونهبوها ، فقد روى ابن الكلبي أن كسرى بعث بعير يصحبها الأساورة إلى باذاب عامله باليمن ، فخرجت مخفورة من المدائن حتى دفعها إلى النعمان بن المنذر، وخفرها النعمان بخفراء من ربيعة ومضر حتى دفعها إلى هوذة بن علي الحنفي ليخفرها حتى تخرج من أرض بني حنيفة، فيدفعها إلى بني سعد بن يربوع لخفارتها في ديار تميم ، لكن هوذة قال للأساورة :انظروا الذي تجعلونه لبني تميم فأعطونيه ، فأنا أكفيكم أمرهم ، وأسير فيها معكم حتى تبلغ مأمنكم ، فخرج هوذة والأساورة ، ومعهم العير من هجر ، وبلغ بنو سعد ذلك فخرجوا عليهم في "نطاع " ، وأخذوا ما كان معهم وسلبوا الأساورة، وأسروا هوذة بن علي ، فاشترى هوذة نفسة بثلاثمئة بعير ، فساروا معه إلى هجر ، وأخذوا منه فداءه.

وعمد هوذة إلى الأساورة الذين أطلقتهم بنو سعد فكساهم وحملهم ثم انطلق معهم إلى كسرى ، فقص عليه أمر بني تميم ،فكساه كسرى خباء ديباج منسوجا بالذهب واللؤلؤ وقلنسوة قيمتها ٣٠ ألف درهم وقال هوذة لكسرى إن أرضهم لا تطيقها أساورتك ، وهم يمتنعون بها ولكن احبس عنهم الميرة ، وأرسل معي جندا من أساورتك ، فأقيم لهم السوق ،فإنهم يأتونها فتصيبهم خيلك .

ففعل كسرى ذلك وحبس عنهم الأسواق في سنة مجدبة ، ثم أرسل إلى هوذة فأتاه ، فبعث معه ألفاً من الأساورة حتى نزلوا (المشقر) من أرض البحرين ، وهو حصن هجر . وبعث هوذة إلى بني حنيفة فأتوه ، فدنوا من حيطان المشقر ثم نودي : إن كسرى قد بلغه الذي أصابكم في هذه السنة ، وقد أمر لكم بميرة فتعالوا فامتاروا . فانصب عليه الناس وكان أعظم من أتاهم بنو سعد فجعلوا إذا جاؤوا إلى

مجلة دجلة • المجلد ١ ،العدد ٣ (٢٠١٨)، ص: ٢٧ – ٣٩

ISSN: 2222-6583

باب المشقر أدخلوا رجلا رجلا ، بعد أن يضع الرجل سلاحه قبل أن يدخل ، حتى يذهب به إلى المكعبـــر، فتضرب عنقه (١٢)، وكان يقال للرجل : ادخل من هذا الباب واخرج من الباب الآخر.

ولعل هوذة لم يكن يجد خطلا في استعانته بالفرس للانتقام من خصومه التميميين، فالانتماء كان قبليا صرفا ، وهذا ما يفسر لنا أيضا رحلة امرئ القيس إلى بلاد الروم وطلبه من القيصر أن يمده بجيش يحارب فيه بني أسد الذين قتلوا أباه وسلبوا ملكه (١٣)، وكذلك سياسة المناذرة والغساسنة في مواجهة القبائل العربية خدمة لمصالح الفرس والروم .

أما الشعور القومي الجامع بين العرب فقد بدأ بالتشكل في الجاهلية المتأخرة قبيل الإسلام ، ومن مظاهر ذلك قيام التحالفات الكبرى بين القبائل ، والسياسة التي انتهجها النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة من تقريب سادات القبائل وإكرامهم ، والتي أغضبت الفرس ، وكانت السبب الحقيقي في استدعائه إلى بلاط كسرى وقتله (١٤).وكذلك يوم ذي قار الذي كان بين بكر و الفرس إذ شاركت فيه بطون من قبائل أخرى إلى جانب بكر . ومن الجدير بالذكر أن يوم ذي قار ،وإن كان يعد من أيام الجاهلية ، فقد وقع بعد غزوة بدر بأشهر ،وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم (هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، وبي نصروا). (١٥).

وفي سنوات القحط و الجدوبة لم يكن أمام القبائل النجدية من مخرج إلا الهجرة إلى أرض العراق ، ليحافظوا على حياتهم وحياة إبلهم ، غير مبالين بما سيلاقون من صعوبات ، قد تودي بهم إلى الهلاك بأزجه الرماح اللخمية والفارسية ، ولم تكن تلك القبائل راغبة في القتال ، وهي ترحل نحو الأرض الخصبة ، بل كانت تدفعها غريزة المحافظة على الحياة ، ولذلك سعى سادتها لدى المناذرة وبني ساسان ، في الإذن لهم بدخول الريف ، وقد مرت سنوات شديدة على تميم ، فخرج حاجب بن زرارة وافداً على كسرى ، ويقال إنه تزود بكتاب من عامل الحيرة إياس بن قبيصة ، فلما دخل عليه ، شكا إليه الجهد في أنفسهم وأموالهم وطلب منه أن يأذن لهم في دخول الريف.فقال كسرى : إنكم العرب معشر غدر ،فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد، و أغرتم على الرعية ،فضمن حاجب ألا يفعلوا ، و رهنه قوسه ، فلما جاء بها ضحك رجال كسرى، وقالوا : لهذه العصا يفي! فقال كسرى: ما كان ليسلمها لشيءأبداً. وقبضها منه ،وأذن لهم بدخول الريف (١٦).

وقد استمال الفرس في أحيان أخرى سادة هذه القبائل بالأعطيات ، وبإقطاعهم أرضاً يطعمونها ، لكي يقوموا بمنع قبائلهم من الإغارة ، أو التربع في السواد ، وقد وفد قيس بن مسعود الشيباني على كسرى، فأطعمه الأبلة على أن يضمن له بكر بن وائل ، فلا تدخل السواد ، ولا تفسد فيه . غير أن الحارث بن وعلة الشيباني والمكسر بن حنظلة العجلي قد أغارا في أناس من بكر على السواد ، و ملأوا أيديهم من الغنائم ،فاشتد حنق كسرى على بكر ، وكان قد بلغ كسرى أن حلقة النعمان وولده

مجلة دجلة • المجلد ١ ،العدد ٣ (٢٠١٨)، ص: ٢٧ – ٣٩

ISSN: 2222-6583

وأهله عند بكر، فطلب من بكر أن يقدموا مائة غلام رهينة بما يحدث سفهاؤهم في السواد ،وأن يسلموا حلقة النعمان فأبوا ذلك ، وقال شاعرهم الأعشى (١٨):

١. من مبلغ كسرى إذا ما جاءه عني مآلك مُخمشات شُرّدا
فأخذ كسرى في تعبئة الجيوش ، وكانت حرب ذي قار (١٩) وهي أول معركة ينتصر فيها العرب على الفرس . وقد أظهرت بعض قبائل العرب في يوم ذي قار شيئاً من الحس القومي ، جمعهم ضد الفرس ، فإذا أضفنا هذه الحقيقة إلى ما رأيناه من شعور قومي عند النعمان بن المنذ ر، تجلى بعصبيته للعرب ، وعدم إخلاصه في ولائه للفرس، تأكدنا من أن الحس القومي قد أخذ في النمو في أواخر العصر الجاهلي ، وقد تبلور ذلك مع بزوغ الإسلام ، فتوحدت جهود العرب بسرعة مذهلة تحت راية الدين الجديد.

آليت لا نعطيه مـــن أبنائنا رهناً فيفسدهم كمن قد أفسدا

فاقعد عليك التاج معتصباً به لا تطلبنّ سوامنا فتعبّدا

اليمن والفرس :

استخدم الفرس والروم الدين سلاحاً لرعاية مصالحهم الاقتصادية والسياسية في الجزيرة العربية ، فخاضوا المعارك الدينية قاصدين من ذلك التأثير في عقول العرب ، ليكسبوا ولاءهم ، ويسخروهم في خدمة مصالحهم ومآربهم تحت غطاء الوحدة في العقيدة . ولأن اليمن آنذاك كانت طريق التجارة العالمية ، فضلاً عن ثرواتها ، وصناعتها الراقية ، فقد كانت محط أطماع الدولتين الكبيرتين ، فسعى الروم إلى تغلغل نفوذهم فيها ،وإبعاد النفوذ الفارسي عنها ، وكذلك سعى الفرس ، وكان الدين إحدى الوسائل التي استخدمها الأجنبي في تقوية نفوذه في اليمن ، فأرسل الروم المبشرين إلى هناك يدعون إلى النصرانية ، وتوددوا إلى سادات القبائل ، لتنصرهم ، وشيدوا الكنائس العظيمة لتبهر العرب ، كما اتصلوا بملوك الأحباش ، وكانوا على النصرانية ، فتوددوا إليهم واستمالوهم إلى جانبهم ، وسعى الفرس إلى تشجيع اليهودية التي كان يدين بها جمهرة أهل اليمن ،كما سعوا في الحيرة وغيرها إلى تشجيع المذاهب النصرانية المعارضة لمذهب بيزنطة.

واحتدم الصراع الديني ذو البعد السياسي بين اليهودية والنصرانية في اليمن ، فقام ذو نواس ملك اليمن ، وكان يدين باليهودية ، بغزو النصارى في نجران ، وعرض عليهم أن يدخلوا في اليهودية فأبوا ذلك ، فخدد لهم الأخاديد ، وحرقهم بالنار ، وحرق الإنجيل ، وهدم الكنائس ، وعاد إلى اليمن (٢٠). فركب رسول من نجران يدعى "دوس ذو ثعلبان " إلى بلاد الروم ، حتى دخل على القيصر ، وأخبره بالبلاء الذي حل بالنصرانية في بلاده . فكتب القيصر إلى نجاشي الحبشة ، بنصرة أهل نجران ، وأن

يغضب للنصرانية ، ويطأ بلاد اليمن ، وأرسل إليه سفناً لركوب البحر . وخرج دوس ذو ثعلبان بكتاب قيصر إلى ملك الحبشة ، فجهز النجاشي جيشاً عدته سبعون ألفاً ،على رأسه أرياط أحد قواد جنده، ودخلت الأحباش اليمن (٢١).

وبعد أن استقر أمر الأحباش في اليمن ، خرج رجل من أشرافها يدعى " أبو مرة ذو يزن " إلى الحيرة ، راجياً من أميرها عمرو بن هند الوساطة لدى الفرس ، ليمدوه بالعون لتحرير اليمن ، فوفد ابن هند على كسرى واصطحب معه ذا يزن ، وطلب ذو يزن من كسرى أنو شروان أن يوجه معه جيشاً لطرد الأحباش من اليمن ، فيزداد بها ملك كسرى ، فاعتذر أنو شروان بصعوبة المسالك إلى اليمن ووعده أن ينظر في الأمر ، وأمر بإنزاله وإكرامه . فلم يزل مقيماً عند كسرى ، حتى هلك (٢٢).

ولم يقدم المؤرخون أسباباً كافية لتخلي الفرس عن مساعدة ذي يزن ،ولابد أن هناك اوضاعاً دولية أو داخلية ، منعت الفرس من التدخل في شؤون اليمن. أما ما ذكر من تعلل كسرى بصعوبة المسلك فهو أمر غير مقنع ،وركوب البحر إلى اليمن أمر هين على الفرس ، وقد حدث ذلك فيما بعد .

ويبدو أن القبائل اليمانية كان ترى في سيف بن ذي يزن زعيما لها بعد هلاك أبيه لذلك مشت وجوهها إليه تكلمه بالخروج على حكم الأحباش .فعمد سيف إلى قيصر الروم ، فخاب سعيه ، حيث قال له القيصر :"الحبشة على ديني ودين أهل مملكتي ، وأنتم على دين يهود"(٢٣).

ولعل مسعى سيف لدى قيصر الروم يدل على عدم درايته بأمور السياسة ، والعلاقات الدولية ، فقد ذهب يطلب النصرة من الحليف القوي لعدوه ، الذي تتحقق مصالحة باستمرار الاحتلال الحبشي لليمن .وقد ذكر النويري أن قيصر أمر لسيف بعشرة آلاف درهم ، فأبى سيف أن يقبلها (٢٤). فإن صح ذلك ،فهذا يعني أن ملك الروم رغب في اصطناع الزعامة اليمنية ، وترويضها لصالح الحبشة.

وبعد أن خاب أمل سيف في قيصر عمد إلى ملك الحيرة النعمان بن المنذر ليكون وسيلة إلى كسرى الفرس ، فدخل على النعمان بن النذر، وكلمه في حاجته ، فقال له النعمان : إن لي وفادة على كسرى ، وهذا حينها ، فلما خرج النعمان إلى فارس اصطحب معه سيفاً ، وأدخله على كسرى ، فقال سيف :"أيها الملك ، غلبنا على بلادنا ، وغلب الأحابيش علينا ، وقد جئت لتنصرني عليهم ، وتخرجهم عنا ، ويكون ملك بلادي لك فأنت أحب إلينا منهم "(٢٥). فجمع كسرى رجال دولته وشاورهم في الأمر، فأشاروا عليه أن يبعث معه السجناء وولى عليهم رامياً شجاعاً منهم ، يقال له وهرز، وحملهم في البحر في ثماني سفن. ونزل الجيش على ساحل عدن ، وقاتل الفرس بأمرة وهرز ، واليمنيون بأمرة سيف بن ذي يزن ، حتى انتصروا على الأحباش ، وحكم سيف اليمن لكسرى ، وبقيت "أحرار " فارس في اليمن "(٢٦).

مجلة دجلة • المجلد ١ ،العدد ٣ (٢٠١٨)، ص: ٢٧ – ٣٩

ISSN: 2222-6583

وذكر المسعودي أن كسرى أنوشروان قد اشترط على ابن ذي يزن شروطاً ، لإرسال الحملة الفارسية ، منها ، أن يحمل إليه خراج اليمن (٢٧) .

قريش و الفرس :

كانت مكة طريق القوافل التجارية . ووجد القرشيون في التجارة وسيلة للعيش الكريم ، فكانوا يشترون البضائع من القوافل التي تمر بهم ثم ،يبيعونها على من حولهم من العرب . ثم عظمت تجارتهم مع التراجع السياسي الذي حل باليمن ،فصارت مكة المحطة الواسعة في نقل التجارة من اليمن إلى بلاد الشام ، أو من بلاد الشام إلى اليمن . وحرص تجار مكة على اتخاذ موقف الحياد تجاه الصراع بين الدولتين العظيمتين وتوددوا إلى سادات القبائل العربية بتقديم الهدايا والألطاف إليهم ، وأخذوا منهم عهداً وإيلافاً ، ليأمنوا على تجارتهم الذاهبة إلى الشام وفارس واليمن ، والآيبة منها . وسعوا إلى محالفة القبائل المجاورة لهم ، ولزموا الابتعاد عن الحروب ، وجنحوا إلى المفاوضات والسلم في حل مشكلاتهم السياسة فظهرت زعامة قريش على القبائل ، بعد تدهور الملك في اليمن . وسعى تجار مكة في إقامة صلات حسنة مع حكام البلدان المجاورة ، وأبرموا المعاهدات والمواثيق .

وقد خرج أولاد عبد مناف إلى فارس و الروم واليمن و الحبشة ، فوثقوا العهود والمواثيق التجارية مع حكومات تلك البلاد .وكان هاشم بن عبد مناف أول مبعوث لهم نزل الشام وتقرب من عامل الروم، فكتب له كتاب أمان ، لمن يقدم من قريش . فأقبل هاشم بذلك الكتاب إلى مكة . وكلما مر بحي من العرب على طريق الشام، أخذ من أشرافهم إيلافاً ، وهو أن تأمن قريش عندهم في أرضهم ، بغير حلف ، و إنما هو أمان الطريق على أن تحمل قريش لهم حاجتهم من البضائع بأثمانها (أي رؤوس أموالها وربحها). وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر إخوته في وفادة على كسرى ، فأخذ عهداً وميثاقاً لتجار قريش، وفي طريق عودته أخذ إيلافاً من أشراف القبائل . ووفد المطلب بن عبد مناف على ملوك اليمن ، فأخذ منهم عهداً لتجار قريش ، ثم أخذ الإيلاف من القبائل ، فعل هاشم ونوفل ، وكذلك وفد عبد شمس على نجاشي الحبشة ، فأخذ منه عهداً . وأخذ الإيلاف من القبائل (٢٧). وقد مر ذكر الإيلاف في القرآن : "لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (٢٩).

وقد عظمت التجارة المكية وكثرت الاموال في ايدي القرشيين وعرفوا حياة الترف الباذج ، وقد ضرب المثل بحاسي الذهب عبد الله بن جدعان ، وكان أعظم أغنياء مكة ، فقد وفد على كسرى في أمور تجارية ، فأكرمه كسرى ، وأطعمه الفالوذج بين يدية ، وطلب ابن جدعان من كسرى جارية تعمل له ما أكل عنده ، فأمر له كسرى بجارية وألطاف ، ولما عاد إلى مكة صنع أول فالوذج في بلاد العرب ، وأطعم الناس ،فضرب المثال بقراه ، فقيل " أقرى من حاسي الذهب " ولقد لقب "بحاسي

مجلة دجلة • المجلد ١ ،العدد ٣ (٢٠١٨)، ص: ٢٧ – ٣٩

ISSN: 2222-6583

الذهب " لأنه كان يشرب في إناء من ذهب (٣٠) وسار أبو سفيان في تجارته إلى فارس ، ودخل على كسرى وأهداه خيلاً عربية وأدماً ، فأعطاه كسرى "مخدة" فلما دفعها إلى الخازن أعطاه ثمانمائة إناء من فضة وذهب . وقد حدث الأصمعي بهذا الحديث النوشجان الفارسي ، فقال النوشجان الفارسي: كانت وظيفة المخدة ألفاً إلا أن الخازن اقتطع مائتين!(٣١) .

ولم يكن النجاح الذي أصابته قريش في تجارتها بين بلاد العرب والفرس والروم نجاحاً عفوياً ، و إنما وراءه اطلاع دقيق على شؤون الصراع السياسي بين الفرس والروم ، وحس مرهف بحدود الموقع الذي تقف فيه بين المتصارعين ، لتحتفظ بمصالحها التجارية لدى كل منهما ، يقول جواد علي :"أما أهل مكة ،فكانوا تجاراً محايدين علاقتهم حسنة مع الروم ومع الفرس ، وكان من مصلحتهم الوقوف على الحياد "(٣٢). لذلك أخفق عثمان بن الحويرث عندما بدا له أن يربط مكة بالنفوذ الرومي ، فقد حدث عروة بن الزبير أن عثمان كان يطمع أن يملك قريشاً ، وقد رأى موضع حاجتهم لقيصر، ومتجرهم ببلاده . فوفد على قيصر، وذكر له مكة ، ورغبه فيها ، وقال له : تكون زيادة في ملكك ، كما ملك كسرى صنعاء ! فملّكه قيصر على قريش، وكتب له إليهم ، وحمله على بغلة عليها سرج عليه الذهب. فلما قدم عليهم وأخبرهم أبت قريش ذلك ، ومنعته ما جاء يطلب (٣٣).

لقد عرض عثمان على قيصر أن يمتد النفوذ الرومي ليشمل مكة ،وهذا أمر صبت إليه الروم ، ولاسيما بعد أن ظهر النفوذ الفارسي في اليمن ، لذلك اصطنع قيصر" العميل " القرشي و"توَّجه " ورأت قريش خطل السياسة التي أرادها عثمان لقومه ، وخشيت على تجارة الشتاء الهامة في اليمن ، وكذلك تجارتهم في فارس ، فحرصت على حياد مكة ، وأنكرت على عثمان جر قريش إلى أحلاف تضر بمصالحها.

وبذلك نجد أن العرب قبل الإسلام كانوا قبائل تحكمها مصالحها الضيقة و أهواء سادتها ، والتي غالباً ما تتعارض مع مصالح غيرها من القبائل ، لذلك كان من الهين عليهم أن يكونوا صنائع للأجنبي ، كما هو حال إمارتي المناذرة والغاسنة التي تقوم بمهمة ضبط القبائل العربية ومنع الأعراب من التطاول على العراق أو الشام ، أو أن تستمد هذه القبائل العون من تلك القوى في صراعاتها الداخلية.

كما نلحظ أن النواة الضعيفة للشعور القومي بدأت تتكون قبيل الإسلام ، وكان من إرهاصاتها السياسة التي أنتهجها النعمان بن المنذر آخر ملوك المناذرة ، من تقريب سادة العرب و إكرامهم وإقامة مجلس لهم كل عام . وكذلك التحالفات القبلية الكبرى، والتي كان من تجلياتها يوم ذي قار .

حواشي البحث :

١- انظر معجم البلدان لياقوت الحموي٥:٣٤ وما بعدها .دار صادر ودار بيروت ،لبنان ١٩٥٧م

٢- انظر المحبر، لابن حبيب :١٩٦. المكتب التجاري للطباعة والنشر ،بيروت، د.ت .

٣- انظر تفصيل الخبر في الأغاني ح ٢:٥٢٤وما بعدها. طبعة دار الشعب ، مصر ،١٩٦٩م . وتاريخ الطبري ح ٢:١٤٧. مكتبة خياط ، بيروت، وتاريخ اليعقوبي ح ١:١٧٣ وما بعدها ، المكتبة المرتضوية ، النجف ، ١٣٥٨ ه .

٤- انظر الخبر في الأغاني ٢:٥٢٤ و ما بعدها ، وتاريخ الطبري ح ٢ :١٤٩ وما بعدها ، وتاريخ اليعقوبي ح ١:١٧٤ وما بعدها .

٥- انظر تاريخ الجاهلية ، لعمر فروخ : ١٣٨ وما بعدها ، دار العلم للملاين ،بيروت ،١٩٦٤ م

٦- انظر الأغاني ح ٢:٥٤٠ وما بعدها . وخزانة الأدب للبغدادي ح ١:٣٨٤ وما بعدها ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ م . وتاريخ الطبري ح ٢:١٥٠ وما بعدها .

٧- انظر الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ح ١:٢٣٠ دار المعارف بمصر ١٩٦٦م ، ومروج الذهب ، للمسعودي ٢:٧٨، الطبعة الثانية ، دار الأندلس ،بيروت ،١٩٧٣.

٨- انظر الأغاني ٢:٥٤١ وما بعدها .

٩- انظر النقائض ، لأبي عبيدة ٢:٧١٣ وما بعدها . دار الكتاب العربي،بيروت ، ١٩٠٩م .

١٠- انظر العقد الفريد لابن عبد ربه ح ٢:٤ وما بعدها . لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥ م .

١١- انظر المحاسن والمساوئ ، للبيهقي ح ٢:٣٢٥ ، مكتبة نهضة مصر ،١٩٦١م.٧

١٢- انظر الأغاني ج ١٩ : ٦٦٤٢ وما بعدها.

١٣- انظر رحلة امرئ القيس في الأغاني ٩: ٣٢١٩ ومابعدها، والكامل، لابن الأثير ١: ٣٠٨ ومابعدها.الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٩٦٧م.

١٤- انظر مقتل النعمان في المحاسن و المساوئ ٢: ٣٢٥ ، ومروج الذهب ٢: ٧٨، والشعر والشعراء١ : ٢٣٠.

١٥- الأغاني ٢٤ : ٧٦ ، ط الهيئة المصرية العامة ، وانظر يوم ذي قار في الأغاني ٢٤:٥٣ وما بعدها ، وابن الأثير ١ :٢٨٥ وما بعدها.

١٦–انظر المعارف لابن قتيبة: ٢٦٢ وما بعدها، الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٧٠م. والنقائض لأبي عبيدة ح١: ٤٦٢ وما بعدها.

١٧– انظر الأغاني ح٢٤: ٥٤وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ١٩٧٤م.

١٨–انظر ديوان الأعشى: ق٣٤، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، ١٩٥٠م.

١٩–انظر يوم ذي قار في تاريخ الطبري ح٢: ١٥٢ وما بعدها، وتاريخ ابن الأثير ح١: ٢٨٥ وما بعدها. والأغاني ح٢٤: ٥٤ وما بعدها، ط الهيئة المصرية العامة .

٢٠–انظر الأغاني ح١٩: ٦٦٢٠.

٢١–انظر نهاية الأرب، للنويري، ح١٥: ٣٠٥، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩م.

٢٢–انظر تاريخ الطبري ح٢: ١١٧ وما بعدها والكامل لابن الأثير ح١: ٢٥٤ وما بعدها.

٢٣– الأغاني ح١٩: ٦٦٢٦ وما بعدها.

٢٤– نهاية الأرب للنويري ح١٥: ٣٠٩.

٢٥– تاريخ الطبري ح٢:١١٥.

٢٦– الأغاني ح١٩: ٦٦٢٧ وما بعدها. وانظر تفصيل الخبر وتمامه في السيرة النبوية لابن هشام ح١: ٦٢ وما بعدها. الطبعة الثانية، مكتبة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥م. وتاريخ الطبري ح ١١٥:٢ وما بعدها. والكامل لابن الأثير ح١: ٢٦٣ وما بعدها.

٢٧– انظر مروج الذهب للمسعودي ح٢: ٥٧.

٢٨– انظر ذيل الأمالي لأبي علي القالي: ٢٠١. الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٤م.

٢٩–سورة قريش (١٠٦).

٣٠–المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ح١: المثل ١١٨٨، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٧م.

٣١– انظر العقد الفريد ح٢: ٢١ وما بعدها.

٣٢– تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ح ٢٤٠:٣ المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٠م.

٣٣– جمهرة نسب قريش و أخبارها ح ٤٢٥:١ وما بعدها ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ .

ثبت المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

٢. الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني . طبعة دار الشعب ، مصر ،١٩٦٩م .

- الأغاني ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر (الجزء ٢٤) .
٣. الأمالي ، لأبي علي القالي ، الطبعة الثالثة، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٤م.
٤. تاريخ الجاهلية ، لعمر فروخ ، دار العلم للملاين ،بيروت، ١٩٦٤ م
٥. تاريخ الطبري . مكتبة خياط ، بيروت ، د.ت .
٦. تاريخ العرب قبل الإسلام ، لجواد علي ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٠م.
٧. تاريخ اليعقوبي، المكتبة المرتضوية ، النجف ، ١٣٥٨ ه .
٨. جمهرة نسب قريش و أخبارها ، للزبير بن بكار ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٣٨١ هـ .
٩. خزانة الأدب للبغدادي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .
١٠. ديوان الأعشى: ، مكتبة الآداب بالجماميز، مصر، ١٩٥٠م.
١١. السيرة النبوية ، لابن هشام ، الطبعة الثانية، مكتبة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٥م .
١٢. الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦م .
١٣. العقد الفريد لابن عبد ربه ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٥ م .
١٤. الكامل، لابن الأثير ، الطبعة الثانية، دار الكتاب العربي ، بيروت، ١٩٦٧م.
١٥. المحاسن والمساوئ ، للبيهقي ، مكتبة نهضة مصر ،١٩٦١م.
١٦. المحبر، لابن حبيب ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت، د.ت .
١٧. مروج الذهب ، للمسعودي ، الطبعة الثانية ، دار الأندلس ، بيروت ،١٩٧٣.
١٨. المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري ١١٨٨، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٧م.
١٩. المعارف ، لابن قتيبة ، الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ١٩٧٠م.
٢٠. معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، دار صادر ودار بيروت ، لبنان ١٩٥٧م
٢١. النقائض ، لأبي عبيدة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٠٩م .
٢٢. نهاية الأرب، للنويري ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٤٩م.